

الدعوة إلى الله من خلال الهجرة العكسية
إلى بلاد النوبة
دراسة في السيرة مقدمة من :
د . حمزة مسعود الطوير
جامعة غريان

مجلة لسان القلم - العدد 6 - يناير 2021م

بسم الله الرحمن الرحيم

تمثل الهجرة معلماً من المعالم الثابتة للحياة على المستوى الديني والاقتصادي والاجتماعي للأمم، وفي الإسلام تمثل حدثاً عظيماً في مسار الدعوة وخطوة واثقة في نشر التعاليم، إذ تجسّد بداية الانطلاق نحو تحرير الإنسان من عبودية النفس والتقاليد الموروثة؛ فبهجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة أشرق نور الإسلام؛ لينقذ البشرية من جحيم الشرك والوثنية والإلحاد، وليزيل الأصفاد والقيود التي تقف حبر عثرة أمام التقدم والحضارة، وليقي الإنسانية من التردّي في مسالك الانحطاط البشري، فامتألت الدنيا محبة وضياء وعلماً ومعرفة، وانزاح كابوس الظلم والطغيان، وارتفعت الإنسانية بفضل تشريعات هذا الدين الجديد إلى درجات عليا من مراقي التفكير الناضج والوعي الحر والإدراك السليم .

وإذا كانت العلاقات بين الأفراد والجماعات تدور دائماً حول محور إنساني واقعي، فإن المؤاخاة العملية بين المهاجرين والأنصار - والتي هي من ثمرات الهجرة - لها أعظم الأثر في بناء الأمة الإسلامية، فقد أسهمت في إرساء دعائم الدعوة إلى الله، وأدّت إلى اهتمامات مشتركة بين أبناء المجتمع الإسلامي ، كما نبهت الشعور بالحاجة إلى الآخرين، ونمت الروابط الاجتماعية بين أفراد المجتمع الإنساني، واعتبرت أصرة الأخوة الدينية من أقوى الروابط وأقدرها على التكييف المتبادل وزادت من الإحساس بالمسؤولية الاجتماعية؛ لإحساس كل عضو بأهميته، وأنه لبنة ضرورية في هذا البناء الإنساني القائم على أسس راسخة من الإيمان والحب والوفاء والإيثار والمعرفة. ومن ثم فإن الهجرة في الإسلام تعد تحولاً نحو الهدف الأسمى وانتقالاً من حال إلى حال، ومن ثقافة إلى أخرى هي أعلى وأفضل، ينشأ من خلالها التفاعل بين المهاجر والمهاجر إليه بأبعاده الإستراتيجية ليخلق مناخاً مشتركاً من الأخوة والتفاهم. ولذا حمل العرب وهم يجوبون أقطار الدنيا إلى جانب النشاط التجاري، العقيدة واللغة والفكر، وأصبح لهم إلى جانب الاتصال الفكري وجود بشري كثيف في الحياة العامة من حيث الإدارة والنشاط الاقتصادي والاجتماعي فاختلفوا بالأمم، وتنازلوا معهم، لاسيما أهل إفريقيا التي أضحت موطناً ثانياً للعرب .

لقد فتحت القارة الأفريقية ذراعيها لاحتضان الإسلام، رغم ما كان فيها من ديانات وثنية، إذ كان التدين في إفريقيا مؤسساً على عبادة مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر وبعض الحيوانات. كما سادت بها النزعة الإحيائية التي تعتقد بوجود الروح في الجماد والنبات، ولا ننسى النصرانية التي أخذت طريقها إلى الممالك عن طريق البعثات التنصيرية المرسلة من حكام الدولة البيزنطية وعن طريق المبشرين الأقباط القادمين من مصر (شوقي الجمل:-1/ 206)

ومما لا شك فيه أن التنوع الكبير في المنظومة الدينية والثقافية للإنسان الإفريقي وتعدد العقائد واللغات، وما يستتبع ذلك من فوارق جوهرية تمنع التواصل والتوحد وتحول دون وجود أرضية مشتركة أسهم بشكل مباشر في سرعة انتشار الإسلام وكثرة معتنقيه، فقد دخل الإسلام إلى أفريقيا عن طريق أول هجرة إلى الحبشة بقيادة عثمان بن عفان ؓ صحبة زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ . أما الهجرة الثانية فكانت بقيادة جعفر بن أبي طالب ؓ وذلك بسبب الاضطهاد العقائدي والفكري الذي كان يسود مجتمع مكة الوثني آنذاك.

ثم توسعت الاتصالات في عهد الخلفاء الراشدين بعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة، فدخل الإسلام مصر، وزحف إلى المغرب العربي في العصر الأموي ، واتخذ مساره السلمي من المغرب إلى غربي إفريقيا ، ثم امتد الإسلام إلى القرن الإفريقي، واتجهت المسيرة الإسلامية من المغرب والمشرق والشمال إلى قلب القارة الإفريقية. وهكذا بدأ الاتصال الفكري بين العرب وإفريقيا، وحدثت الهجرات الفردية والجماعية من وإلى ديار الإسلام.

بلاد النوبة

ذكر المؤرخون والجغرافيون أنها: ((أرض واسعة في جنوبي مصر وشرقي النيل وغربيه، هي بلاد واسعة، وأهلها أمة عظيمة نصارى بعامتهم)) (القريني - 8/1-) وقيل إنها تقع في إقليم كبير ((في حدود مصر، ... ويقال: إن لقمان الحكيم الذي كان مع داود عليه السلام وهو المذكور في القرآن العظيم من النوبة، وأنه ولد بأيلة، ومنها ذو النون المصري ؓ وبلال بن رباح خادم رسول الله ﷺ ومؤذنه.

وعندهم معدن الذهب ودينهم النصرانية ... وهم فرقتان فرقة يقال لها علوة ومدينتهم العظمى وبلولة وهي مدينة عظيمة وبها من السودان أمم لا تحصى، والفرقة الأخرى يقال لها **النوبة** ومدينتهم العظمى دنقلة وهي مثل وبلولة على ضفة النيل من غربيه ... ومن مدن **النوبة** المشهورة نوابية ويقال لها نوبة، وهي مدينة وسط وبينها وبين النيل أربعة أيام، وشرب أهلها من الآبار)) (ابن الوردي -28/1-

معاهدة البقط مفتاح الهجرات بين النوبة وبلاد الإسلام :

لعل أهم حدث يسترعي الانتباه ويتوجب الوقوف عنده هو الاتفاقية المبرمة بين القائد المسلم عبد الله بن أبي السرح وملك النوبة سنة 31هـ التي تسمى معاهدة البقط. وتنص بنود الاتفاق فيها على تهجير ثلاثمائة وستين نسمة سنويا من بلاد النوبة إلى ديار الإسلام حسبما ذكره المقرئ الذي تأتي أهمية روايته - بالرغم من أنه مؤرخ متأخر - من انفراده بذكر النص الكامل لهذه المعاهدة بخلاف كبار المؤرخين المتقدمين القريبين من زمن وأجواء توقيع المعاهدة، والذين اكتفوا بإيراد أجزاء منها في مؤلفاتهم مثل الطبري، والمسعودي.

ساق المقرئ نص المعاهدة الذي يقول: ((عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبي السرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته، عهد عقده على الكبير والصغير بين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة ... إنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد ﷺ ألا نحاربكم ولا ننصب لكم حرباً ، وأن لا نغزوكم ما أقمت على الشرائط التي بيننا وبينكم، على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه، وعليكم حفظ من نزل بلادكم أو بطرفه من مسلم، أو معاهد حتى يخرج عنكم، وأن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام ولا تستميلوا عليه ولا تمنعوا منه.

وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بقاء مدينتكم ولا تمنعوا منه مصل ولا تعرضوا لمسلم قصده وجاور فيه إلى أن ينصرف عنه، وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمه. وعليكم في كل سنة ثلاثمائة وستون رأساً تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب يكون فيها ذكران وإناث ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم تدفعون ذلك إلى والي المسلمين.

وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان. فإن أنتم قتلتم مسلماً أو معاهداً أو عرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم ، أو منعتم شيئاً من الثلاثمائة رأس والستين رأساً برئت منكم هذه الهدنة والأمان وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

علينا بذلك عهد الله وميثاقه ودمته وذمة رسوله محمد ﷺ، ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم . الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك. وكتبه عمرو بن شراحيل في رمضان سنة 31هـ)) (المقرئ: ج1، ص 199)

إن الباحث المدقق في روايات المعاهدة ونصوصها يلحظ ما جاء في شروطها ومسار تطبيقها من أمر يخرج بها عن الاتفاقات التقليدية ليضعها في مصاف السياسات التهجيرية المنظمة. فمعاهدة البقط تعد اتفاقاً على الهجرة المنظمة الهادفة من ديار الكفر والإلحاد إلى ديار الإسلام، فمن خلال بنود المعاهدة وآلية تطبيقها شهدت منطقة ساحل شرق أفريقيا، وعلى امتداد ساحل البحر الأحمر الجنوبي المواجه لساحل شبه جزيرة العرب بعداً جديداً غير مسبوق، ودفعاً لم يسبق له مثيل من قبل بين العرب المسلمين والأفارقة .

إن لبنود هذا الاتفاق آثاراً حضارية وإسهامات ثقافية تنبئ عن تمازج الثقافات، وكان لما تم الاتفاق عليه من تهجير الأنفس الثلاثمائة والستين من بلاد النوبة إلى مصر أغراض سامية ومقاصد نبيلة تتعدى مرتبة الانتفاع المادي؛ لترتقي بالمهجرين إلى مستوى أفضل من خلال تربيتهم داخل المجتمع المسلم ليتشربوا عقيدته وثقافته ولغته لاسيما بعد اعتناق أعداد كبيرة منهم الإسلام، إذ شكلت طائفة منهم قوة للمجتمع المسلم، وعاد بعضهم إلى ديارهم ليصبحوا دعاة بين أهليهم (يوسف فضل : الهجرات البشرية ، ص 24 وما بعدها)

لقد أصبح المهجرون بتكاثرهم وتعاظم أعدادهم مشاركين في الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية في مصر. ففي المجال السياسي كان العنصر النوبي من العناصر التي وجدت طريقها إلى الحياة السياسية والعسكرية، إذ أصبح النوبيون في

عهد الدولة الطولونية يشكلون قوة لا يستهان بها في الجيش الطولوني، كما زاد عددهم بصورة جعلت ابن طولون يخصص لهم قطعة من القطائع التي كان قد أقامها لسكن العناصر المختلفة التي وردت إلى مصر وقد زادت أعدادهم في مصر ودخلت طوائف كثيرة منهم الإسلام (المقريزي : ج 1، ص 313. والبلوي، ص 52. و جعفر أحمد صديق، ص 225)

وعندما قامت الدولة الإخشيدية بمصر استمر النوبيون في تشكيل قوة هامة في جيشها، وكان منهم القادة والأمراء، فقد تبوأ كافور الإخشيدى مكانة عالية في الدولة وبسط سيطرته عليها وكان من الطبيعي أن يجند كثيراً من النوبيين في الجيش لضمان حمايته مما قد يهدد أمن الدولة، إضافة إلى استخدامهم في ضبط نظام الدولة وأمنها الداخلي لما يجد عندهم من الطاعة والالتزام (سر الختم عثمان ص313) كما كان للنوبيين مشاركتهم السياسية في العهد الفاطمي والعهدين الأيوبي ثم المملوكي.

أما الصلات التجارية التي كانت قائمة بين البلدين فكان لها أثرها في إيجاد التلاقح الثقافي وتنوع المعارف وتبادل الخبرات الحياتية، إذ كان قدماء المصريين يعدّون ديار النوبة بمثابة مصدر هام للمنتجات الإفريقية ومدخلاً رئيساً لها، فتوغلّت القوافل التجارية منذ الدولة المصرية القديمة محملة بأدوات الزينة والحلي والأسلحة وكانت تعود بالذهب، والزمرد، والرقيق، والأبنوس، والعاج، وبازدهار هذه العلائق التجارية توغل التجار جنوباً، وأثروا تأثيراً حضارياً كبيراً مما جعل بعض المؤرخين يذهبون إلى أن هذه الأجزاء من النوبة خضعت لفترات طويلة للاحتلال المصري المباشر، وقد تجلّى ذلك في كثير من مظاهر الحياة النوبية في جانبها الثقافي والحضاري، مما لا تزال مشاهدته وآثاره باقية في أشكال الأواني الفخارية.

أما بعد مجيء الإسلام فمعاهدة البقط ضمنت للمسلمين فتح بلاد النوبة للتجارة، والسماح لتجارهم بارتياح البلاد، فكان التجار من أهم وسائل نشر الثقافة الإسلامية في بلاد النوبة، فتوغل التجار إلى أعماق بلاد النوبة، حاملين على عواتقهم مهمة نشر تعاليم الإسلام هناك، فاستطاعوا بما تكوّن لديهم من خبرات معرفية عن أحوال البلاد تمهيد الطريق لهجرة القبائل العربية من بعد (مصطفى مسعد، ص 114)

إن من أهم آثار الهجرات العرب أفريقية المترتبة على اتفاق البقط التمازج المعرفي والتبادل الثقافي والتناغم الفكري الذي نشأ عن ارتحال المسلمين العرب إلى بلاد النوبة واستجلاب النوبيين إلى بلاد العرب، فقد ظل سجل الثقافة النوبية حتى مرحلة ما قبل توقيع معاهدة البقط يتأرجح بين ثقافتي الزنوج والحاميين من جهة، وما طرأ عليها من مؤثرات خارجية على رأسها الأثر المصري من جهة أخرى. إذ كان للحضارات المصرية التي قامت على حوض النيل الشمالي أثر كبير على الشعوب التي سكنت من حولها بوجه عام، وعلى بلاد النوبة على وجه الخصوص، فأدت تلك العلاقة إلى تسرب بعض الطقوس الدينية والمعتقدات والأفكار، والعادات والتقاليد كنتاج طبيعي للصلات الفكرية، كتنشئ عبادة الآلهة المصرية جنباً إلى جنب، مع بعض الآلهة الوطنية المحلية، وانتشار المعابد المصرية والرسومات الهيروغليفية، ولعل في بناء قصور الملوك على شاكلة المصريين وطريقة دفن النوبيين لموتاهم في البركل، ومروي، وكبوشية - من مدن النوبة الشمالية - خير شاهد على ذلك الأثر الثقافي المصري القديم (حسن سليمان محمود وجمال الشاويش: ص 151)

ولانتشار النصرانية أيضاً أثره في الثقافة النوبية، إذ صبغت البلاد بكثير من مظاهر ثقافتها كتحويل المعابد القديمة إلى كنائس، وتشيد الكاتدرائيات التي ملئت بالزخارف والنقوش، وبعض المشاهد من الإنجيل وصور القديسين، وظهر الأثر البيزنطي في التحف الفنية التي عثر عليها في كنيسة فرس، إضافة لقطع الفخار وصور الحيوانات التي ظلت تمثل تقليداً وطنياً منتشراً في مملكة علوة (يوسف فضل: ج1، ص17)

كذلك يلاحظ الأثر النصراني القبطي في استخدام اللغة القبطية في أداء الطقوس الدينية الكنسية، وقد ترجمت فيما بعد إلى اللغة النوبية، و كل ذلك بسبب هيمنة الكنيسة المصرية على الكنيسة النوبية، بل أضحت الكنيسة المصرية تقوم بتعيين وإرسال الأساقفة للكنيسة النوبية. ولقد بقيت بعض العادات والتقاليد النوبية والمورثات الثقافية الوثنية سائدة في المجتمع النوبي حتى تمكن الإسلام في البلاد (شوقي الجمل: ج1، ص222)

وبعد توقيع معاهدة البقط حدثت مؤثرات ومتغيرات عديدة كان على رأس نتائجها تحول مسار بلاد النوبة من النصرانية إلى الإسلام. ولعله من المهم أن نشير إلى أن ذلك التحول لم يتم سريعاً ولم يشمل بسطاً حاسماً لتعاليم الإسلام . وإنما جاء انسياقاً يصطحب معه انتشار التشريعات الإسلامية إضافة إلى الثقافة العربية الإسلامية، واللغة العربية، لغة القرآن الكريم والخطاب الإسلامي.

وقد مر انتشار الثقافة الإسلامية بالنوبة بتطورات عدة، وخضع لمجابهة ظاهرة الالتقاء الثقافي، وهي المشكلة التي تواجهها الحضارات الإنسانية عموماً حين تلتقي وتختلط وتتبادل التأثيرات، فقد التقت في مصر الثقافة الإسلامية الوافدة مع الثقافات الإغريقية المصطبغة بصبغة الحضارة المصرية القديمة، مما أسهم في ظهور طراز من الحضارة الإسلامية متأثر في طابعه العام ببعض هذه الثقافات، إذ إن الإسلام أخذ وأعطى، ومن هذا الأخذ والعطاء ظهرت الحضارة الإسلامية في مصر؛ لتنتقل إلى بلاد النوبة، حيث ظل عهد البقط بشرائطه يمثل نوعاً من الاتصال الدائم بين المسلمين والأفارقة النوبيين قرابة سبعة قرون من الزمن تسربت خلالها الموروثات الإفريقية إلى ديار العرب، وانتقلت المؤثرات الإسلامية مع القبائل العربية التي تغلغت جنوباً، لتستقر قطاعات عريضة منها في شرق ووسط وغرب السودان ، حتى وصل هذا الوجود إلى الحبشة ودارفور في أواخر القرن السادس الهجري (حسن أحمد محمود : ص 12 وما بعدها)

ومن ثم يمكن القول: إن الوجود العربي الإسلامي في بلاد النوبة لم يظل حبيس المناطق الشمالية، بل امتد جنوباً مع القبائل المهاجرة، ومع النوبيين العائدين من المهجر العربي، وجماعات المسلمين الذين تدفعهم دواعي نشر العقيدة الإسلامية ، وبسط دعوتها، إضافة إلى الدوافع الاقتصادية والأمنية، فانفتحو على السكان الوطنيين من نوبيين وزنوج، وغيرهم ، فصاهروهم وتأثروا بما عندهم من الموروث الثقافي، كما أحدثوا في حياتهم تغييرات كبرى بما حملوه من اللغة والثقافة ونظم الحياة (حسن إبراهيم حسن : ص 103).

أثر الثقافة الإسلامية على النوبيين:

لا يخفى ما للأفراد والجماعات التي شاركت في الحملات التي سبّرها أمراء المسلمين على النوبة عند إغارتها على جنوب مصر، أو تراخيهم عن التزامهم بدفع البقط من أثر في انتقال الثقافة الإسلامية وانتشارها وسط النوبيين، حيث كان أعظم هذه الحملات، وأكثرها على بلاد النوبة في العهد المملوكي، وقد استغل الجنود فرص الأمن والحماية واستقروا هناك بعد أن خلّعوا عنهم صفات الجندية الرسمية، فتصاهروا مع النوبيين، وتوثقت الصلات بينهم فنقل إليهم هؤلاء المحاربون القدامى كثيراً من المؤثرات الثقافية الإسلامية.

ويأتي على رأس مقومات نشر الموروث الثقافي العربي الإسلامي جهود الدعاة الذين حملوا مشعل الديانة وتقلّدوا أعباء الدعوة، فنقلوا كثيراً من مظاهر الثقافة الإسلامية للنوبيين، يدفعهم لذلك حماسهم الديني، وما اتصف به الإسلام من سماحة ويسر وعدالة في التشريع تأثر بها النوبيون تأثراً مباشراً، فامتد ذلك إلى نفوس المنتصّرين منهم والوثنيي (عبد المجيد عابدين : ص 34)

ولعل من نافلة القول إن الثقافة الإسلامية لم تقض على الموروث الثقافي للنوبيين، لكنها عملت على خلق نوع من التثاقف والتمازج في الأفكار والعادات والتقاليد بين الطرفين بالملائمة والتلاقح بين الموروث المحلي والإسلامي المكتسب، ومن ثم فإن النوبة لم تتخل عن كل ما هو قديم وتليد من تراثها، مثلما لم يتخل العرب عن موروثهم الثقافي أمام الدخيل الوافد مع المهجرين النوبيين؛ لأن ذلك من دواعي فطرة الإنسان الذي هو كائن، يرفع تراث أسلافه ويفخر بما خلفوه، بل وينظر إليه على أنه تراث يجب حفظه، والدفاع عن بقائه، إضافة إلى أن الإسلام لم يطلب من الذين اعتنقوه وأقبلوا عليه التخلي عن كل موروثاتهم القديمة ما دامت لا تتعارض مع تعاليمه، فمنهج الإسلام في التعامل مع ذلك الموروث هو العمل على تهذيبه وتنقيحه، وتنقيته مما يتعارض مع الدين، فنشأت بذلك بيئات حضارية محلية؛ لكل بيئة مقوماتها الخاصة، واتجاهاتها الخاصة لكنها تلتقي جميعاً تحت مظلة الدين وتحاط بسياج من الصفات المشتركة من القيم والمثل والأخلاق، فضلاً

عن الدين واللغة. (حسن أحمد محمود : ص 17)

ويمكن أن نسمي ما حدث في النوبة بالتلاقح الثقافي والتأثر بنور الإسلام وتعاليمه، وقد تبدت بعض مظاهر تلك الثقافة الوليدة عند السلاطين والحكام في طريقة جلوسهم للقضاء في المظالم، وفي لباسهم وتوظيف المحيطين بهم، واستخدامهم لبعض المناصب والمصطلحات الإدارية والنظم والرسوم وغيرها مما يبرز الأثر الإسلامي في الوسط الإفريقي عامة والنوبة خاصة.

ومن مظاهر تأثر الأفارقة النوبيين بالثقافة الإسلامية ما عُثر عليه من كتابات عربية على بعض القبور تحمل أسماء عربية تعود إلى القرنين الثاني والثالث الهجريين شمال دنقلة وفي منطقة كلابشة، كما عثر في المنطقة نفسها على مقابر نوبية عليها كتابات باللغة القبطية، تحمل تاريخاً مزدوجاً من التقويمين القبطي والهجري، ويبدو أنها من آثار جاليات عربية استقرت هناك في تلك الفترة، كما وُجدت كتابات لا تحمل سوى التاريخ الهجري وترجع إلى القرن الثاني الهجري.

ويجدر التنويه هنا بأن مثل هذا الأثر المدوّن على شفير القبور تصحبه آداب الجنائز وأحكامها بدءاً من تغسيل الميت وتكفينه حسب تعاليم الإسلام، ثم الصلاة عليه في وضع خاص باتجاه القبلة، وإقباره على الطريقة الإسلامية وغيرها من الآداب التي اكتسبها النوبيون بدخول الإسلام بلادهم، أو بانتقالهم إلى أرضه.

ومن مظاهر انتشار الثقافة الإسلامية وسط النوبيين تسميهم بالأسماء والكنى العربية، وهجرهم لأسمائهم الوثنية، مثل: يزيد بن أبي حبيب، وذو النون المصري النوبي الأصل، وتحية النوبية الزاهدة، وغيرهم من النوبيين الذين تسموا بالأسماء العربية وتخلوا عن الأسماء المحلية.

ومن المؤثرات الثقافية التي انتقلت إلى النوبيين من اختلاطهم بالمسلمين اتخاذهم الحوادث التاريخية الشهيرة مناسبات يؤرخون بها، على طريقة العرب الذين كانوا يؤرخون بما يستجد في حياتهم من النوازل والأحداث كسيل العرم، وبناء الكعبة، وحرب البسوس، وغيرها، فاتخذ النوبيون والعرب المستعربون في بلاد النوبة حوادث مستجدة للتأريخ بها: كسنة البعوضة، وسنة الفار (مصطفى مسعد : ص 138 وما بعدها . وحسن أحمد محمود : ص 289).

أما في مجال قانون العقوبات والجنايات فقد بدأ الأثر الثقافي الإسلامي واضحاً في حياة النوبيين الذين كان من أعرافهم الاجتماعية طرد السارق وإخراجه من القرية. ومن عاداتهم أن الزوج يستولي على جهاز زوجته، فهذه النظم المحلية تنافي تشريعات السماء، ولا تتواءم والذوق الرفيع، ومن ثم تأثر النوبيون بتشريعات الإسلام في التعامل مع مثل هذه المواقف بعد انتشاره وبسط أحكامه، وتقلصت تلك العادات والثقافات الوثنية الموروثة التي ظلت سائدة تحكم الحياة الاجتماعية للنوبيين وتوجهها. وإلى جانب تعاليم الإسلام والثقافة الإسلامية أسهمت معاهدة البقط بسياساتها التهجيرية في انتشار اللغة العربية التي تعلمها المهجّرون إلى البلاد العربية، والتي نافست كثيراً من اللغات واللهجات التي كانت سائدة في تلك المناطق، وكان لانتشار الإسلام دور بارز في تعلم العربية في إفريقيا، إذ إنها لغة القرآن بها نزل، وبحروفها يتلى، فهي لغة العبادة والشعائر الإسلامية، لذا أقبل عليها معتقو الإسلام من مختلف الملل، يتعلمون ألفاظها؛ ليفقهوا معاني القرآن الكريم .

وكان للتقارب بين العربية وغيرها من اللغات العروبية دور في انتشار العربية، إذ إن التقارب بين العربية والسامية في كثير من المظاهر الصوتية واللفظية والنحوية من جهة ، وبين السامية والحامية من جهة أخرى في الضمائر وأسماء العدد والتنثية وقواعد الصرف، أسهم في انتشار العربية - لغة القرآن - بين الأفارقة (عبد الله عبد الرحمن الأمين: 1 / 16، 17)

إضافة إلى ذلك فهناك العامل الحضاري الذي يسهم في انتشار الثقافات وتفقّ اللغات العريقة ذات الأصول الثابتة. فالمعلوم أنه إذا التقت لغة ذات تراث حضاري متفوق مع أخرى حظها من التراث قليل فإن الأمر ينتهي بسيادة اللغة ذات الثقافة الواسعة والتراث العريق، وقد حدث هذا في كثير من المناطق التي انتشر فيها الإسلام في القارة الإفريقية، إذ تفوقت العربية على تلك اللهجات لتصير لغة الخطاب الديني والشعائر والتفاهم في المناسبات الرسمية .

أما في بلاد النوبة فقد ظلت اتفاقية البقط تمثل الركن الأساس في مسار العلاقة بينها وبين بلاد الإسلام، ومن خلالها تسربت المؤثرات الإسلامية التي أدت إلى تغيير ثقافة النوبيين الدينية والاجتماعية والسياسية.

ومما تجدر الإشارة إليه أن ظاهرة التأثير والتأثير ومظاهر التمازج الثقافي والتلاقح الفكري لم تأخذ اتجاهها واحداً، ولم تحدث دفعة واحدة، بل تمت عبر مراحل مختلفة، وفترات طويلة من الإسهامات والتضحيات التي قدمها المهجرون والمهاجرون من التجار والأفراد والدعاة العائدون من أرض المهجر، وقد تبدت تلك المؤثرات في كثير من مظاهر الحياة النوبية.

أما اللغة العربية فلم يكن حظها أوفر من غيرها من اللغات الوافدة من طريق الهجرة، إذ إن تعلّمها وانتشارها في الأوساط الأفريقية أخذ طابع السير البطيء؛ لأن الجماعات العربية الأولى التي استقرت في بلاد النوبة وتحملت أمانة الدعوة ونشر الإسلام وسط النوبيين وجدت نفسها مضطرة إلى تعلم لغة النوبيين لتسهيل مهمتهم في الدعوة ونشر الدين مع محاولة تعليم النوبيين العربية؛ ليتمكنوا من فهم مبادئ الإسلام وشعائره وفق المصطلحات الواردة في نصوص الوحي (حسن أحمد محمود : ص 51)

ولذا ظلت العربية الفصحى لغة العبادة فقط إلى جانب اللهجة المحلية الدارجة في القبائل الإفريقية، وقد ساعد على سيطرة اللهجات الإفريقية على الأدب والخطابة والمحاضرة تمكن تلك اللهجات من البلاد، مع قلة عدد المتعلمين من الأهالي، إضافة إلى اشتداد العصبية القبلية، وصعوبة الاتصال بين الجماعات المتناثرة في أنحاء النوبة المختلفة، مما أسهم في تأخر فهم النوبيين الذين اعتنقوا الإسلام في هذه الفترة المبكرة لأداء الشعائر الإسلامية المفروضة على الوجه التام المطلوب، والإمام التام بأركان تلك الشعائر، لاسيما القولية منها، ففي الصلاة مثلاً يتعذر على كثير من الأفارقة في بادئ الأمر قراءة القرآن؛ لفقدان عنصر اللغة، فكانوا يكتفون بالتهليل والتكبير. إذ إن البلاد لم تشهد بعد حركة علمية على نطاق أوسع، إضافة إلى قلة الفقهاء والمختصين في علوم اللغة، والقراءات القرآنية من الوافدين إلى النوبة. إلا أن ذلك لم يحل دون تسرب كثير من المفردات والألفاظ العربية إلى اللغة النوبية، حتى أضحت في فترات متقدمة تمثل حيزاً واسعاً من مجموع ألفاظ ومفردات اللغة النوبية (محمد إبراهيم أبو سليم : ص 52)

ومع مرور الزمن، وكثرة اختلاط العناصر العربية بالأفارقة عامة والنوبيين خاصة تحولت العربية من لغة العبادة والشعائر الدينية إلى اللغة الثانية الرسمية بعد العامية النوبية، وأضحى من اليسير على النوبي التحدث بالعربية في تعاملاته التجارية مع التجار العرب، والقادمين من بلاد البجة، وعلوة وغيرها، فأصبحت العربية بذلك لغة التخاطب التجاري والتحاور الثقافي، وربما صارت قاسماً مشتركاً بين النوبيين أنفسهم يتكلمون بها، إضافة اللغة المحلية (حسن أحمد محمود : ص52)

من كل ما سبق يمكن القول: إن انتشار العربية بين الأفارقة كان يوائم انتشار الثقافة العرب إسلامية بين النوبيين والأفارقة، ويسير جنباً إلى جنب مع تعلم العرب اللغات واللهجات الأفريقية الوافدة مع المهجرين، ويدلك على ذلك وجود كتابات في مقابر نوبية باللغة القبطية، تحمل تاريخاً مزدوجاً للتقويمين الهجري والقبطي. ووجود كتابات أخرى مؤرخة فقط بالتاريخ الهجري. وفي مراحل متقدمة تظهر شواهد قبور مكتوبة بالخط العربي تحمل أسماء عربية ترجع إلى القرن الثالث الهجري. (مصطفى مسعد : ص132)

الأثر العلمي لهذه الهجرات :

عند استعراض المجال العلمي نجد أنه كان للنوبيين دور ملحوظ - متى ما تيسرت لهم الأسباب - في ولوج هذه الحياة المزدهرة في شتى نواحيها ، شأنهم في ذلك شأن الجماعات التي وفدت إلى مصر فطاب لها المقام وشاركت في الحياة العامة وفي الأوضاع الاجتماعية بوضع خاص.

فلا يعدم المستقرئ لتاريخ تلك الحقبة أن يلتقي ثلة من العلماء النوبيين الذين حملوا مشعل الحضارة الإسلامية وتثقفوا بهدايات الإسلام، وكذا بعض الشخصيات النوبية الملتزمة بتعاليم الدين، والتي نهلت من معين الثقافة العربية في هذه الفترة المبكرة لاسيما أن منهم شخصيات تبوأرت مرتبة في السبق إلى الإسلام كبلال بن رباح مؤذن النبي ﷺ. فقد برزت الشخصيات الإفريقية لاسيما النوبية منها في مجالات العلوم الشرعية والفقهية ورواية الحديث النبوي مثل يزيد بن أبي حبيب ، وذو النون المصري النوبي الأصل وتحية النوبية وغيرهم .

فأما يزيد بن أبي حبيب ، فأبوه أبو حبيب ، واسمه سويد ، كان من النوبة الذين أسرهم المسلمون في حملتهم على النوبة سنة 31هـ ونشأ ابنه يزيد نشأة عربية إسلامية وتفقّه على يد عدد من شيوخ مصر ، ثم تخرج على يده عدد من الشيوخ قال عنه ابن سعد : كان ثقة كثير الحديث مات في خلافة مروان بن محمد سنة 128 هـ كان فقيه مصر ، قال الليث : هو عالمنا وسيدنا. (مصطفى مسعد ص 140)

وفي التاريخ الكبير للبخاري يزيد بن حبيب ((هو ابن سويد قال ابن بكير وبلغني أن أبا حبيب اسمه سويد أعتقته امرأة مولى بني حسل وتزوج امرأة مولاة لتجيب فولدت له يزيد وخليفة، وهما معنا في الزقاق. قال ابن بكير: وسألت ليث بن سعد متى توفي يزيد بن أبي حبيب؟ قال سنة ثمان وعشرين ومائة.

وسأله ابن كم سنة ؟ قال ما بين خمس وسبعين إلى الثمانين، وصلى عليه الحوثره وكنيته أبو رجاء)) (البخاري: 8 / 336)

وأما ذو النون المصري فهو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم، نشأ في مصر في القرن الثاني للهجرة ، وحج وتلقى الموطأ عن بعض أصحاب مالك بن أنس، ولما عاد إلى مصر مال إلى حياة الزهد والتصوف. وقد أشبع في نفسه هذه النزعة عن طريق الرحلة إلى المناطق النائية في صحاري الشام والعراق والمغرب وتوفى بالحيرة سنة 246هـ . (البخاري: ج 2، ص 10، 11. وابن خلكان : ج 2 ص 280-283)

وقد امتدحه الصفدي بقوله: ((ثوبان بن إبراهيم وقيل الفيض بن إبراهيم المصري، المعروف بذي النون، المصري الصالح المشهور، أحد رجال الطريقة، كان أوحده وقته علماً وورعاً وحالاً وأدباً، وهو معدود في جملة من روى الموطأ عن الإمام مالك، كان أبوه نوبياً، وقيل من أهل إخميم، مولى لقريش)) (الصفدي : 3 / 394)

وكانت تحية النوبة العابدة الزاهدة، مثلاً في الورع والزهد، وعلى درجة عالية من الثقافة الدينية، جاء في صفة الصفوة ((قال الماليني: دخلت على تحية زائراً فسمعتها من داخل البيت وهي تتاجي وتقول في مناجاتها: يا من يحبني وأحبه. فدخلت إليها وسلمت عليها وقلت: يا تحية إنك تحبين الله تعالى فمن أين تعلمين أنه يحبك؟ فقالت: نعم إني كنت في بلد النوبة وأبواي كانا نصرانيين، وكانت أُمي تحملني إلى

الكنيسة وتجيء بي عند الصليب وتقول: قبلي الصليب، فإذا هممت بذلك أرى كفا تخرج فترد وجهي حتى لا أقبله. فعلمت أن عنايته بي قديمة)) (ابن الجوزي : 3 / 139)
وخلاصة الأمر: يمكن القول بأن تهجير النوبيين إلى مصر قد حقق أغراضاً عديدة، كان من أهمها تحولهم للإسلام، ونبوغ بعضهم في العلوم الشرعية، فعاد إلى مواطنهم دعاة للإسلام وناشرين للدعوة .

نتائج الدراسة:

وبالتأمل والنظر في الهجرات الإسلامية عامة، والسياسة التهجيرية المركوزة في بنود معاهدة البقط وتفصيلاتها ومسار تطبيقها يخرج الباحث بعددٍ من النقاط الهامة يمكن إيجازها في الآتي:

- إن الهجرات الإسلامية تعد دليلاً شامخاً على روح التعايش والمواطنة والتسامح الديني والثقافي الذي كان سائداً بين المسلمين وغيرهم. ومن ثم فإن السياسة التهجيرية التي انتهجها القادة المسلمون في مقتبل عمر الإسلام كانت عاملاً رئيساً في إحداث التغير في العلاقات بين المسلمين والأفارقة وربط روح التعاون والتعايش السلمي بينهما، وأسهمت في تبادل الثقافات وتمازج الأفكار، وعملت على الانتقال الطوعي المتدرج من الوثنية إلى الإسلام، فكان أول نتاج هذا التعايش والتسامح أن التزم النوبيون بحفظ وحماية مسجد دنقلا الذي تم بناؤه في حاضرة العاصمة النوبية قبل توقيع اتفاقية البقط على يد التجار الذين يمثلون طليعة حركة الدعوة والمد الإسلامي في مناطق كثيرة من القارة الإفريقية.

- إن معاهدة البقط ببنودها الداعية إلى تلاقح الثقافات من خلال الهجرات المتبادلة قد وطنت الصلة بين الطرفين في وقت مبكر، إذ أمنت الحدود والقوافل التجارية، وانفتح الباب من ثم للهجرات والتفاعل السكاني، ودخل الجميع في علاقات تصاهر وتزاوج أدى لظهور أجيال المولدين؛ فتوافرت بذلك علاقات اجتماعية واسعة مكنت الثقافة الإسلامية واللغة العربية في البلاد الإفريقية وازدهرت حركت التجارة وحركة الملاحة في البحر الأحمر، وفي منطقة وادي النيل نشأت المدن والمراكز والمواني النيلية، وانتقل أعداد من النوبيين إلى مصر للتجارة وللعلم واستوطن بعضهم هناك وشارك مشاركات كبيرة في حركة السياسة والاجتماع والعلم والمعرفة حتى أضحت

لهم ضواحيهم الخاصة، وأصبح بالأزهر رواق كامل يعرف برواق النوبة والسودان، وأدى ذلك إلى بروز عددٍ غير قليل من العلماء النوبيين الذين أصبحوا مناراتٍ شامخة في الأدب والفقه والفُتيا وعلم الحديث، وقدموا بذلك مساهماتٍ مقدرة وكسباً وحضوراً معتبراً في بناء معالم الحضارة الإسلامية سجلتها مصادر التاريخ بأحرف من نور.

مصادر البحث

- البخاري: التاريخ الصغير تحقيق محمود إبراهيم ، دار الوعي ، حلب، 1977م ، ج 2 ، ص 10، 11، وأحمد بن محمد.
- البخاري، التاريخ الكبير، تحقيق السيد هاشم، دار الفكر، 8 / 336
- ابن الجوزي، صفة الصفوة ، 3 / 139
- حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة ، ص 103
- حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، ص 52.
- حسن سليمان محمود وجمال الشاويش: تاريخ السودان في العصور القديمة ، دار مصر للطباعة ، القاهرة. ص 151.
- بن خلكان : وفيات الأعيان ، دار الثقافة ، بيروت ، ج 2 ص 280 - 283.
- شوقي الجمل: تاريخ السودان وادي النيل ، ج 1، ص 206م.
- سر الختم عثمان : أثر السودانين السياسي والاقتصادي والثقافي على المجتمع المصري في العصور الوسطى.
- شوقي الجمل : تاريخ السودان وادي النيل، ج 1 ، ص 222
- الصفدي ، الوافي بالوفيات، 3 / 394
- عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية في السودان، ص 34.
- عبد الله عبد الرحمن الأمين: العربية في السودان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1967م. 1 / 16، 17
- القزويني - آثار البلاد وأخبار العباد - 8/1 - الشاملة موقع الوراق
- محمد إبراهيم أبو سليم : دور العلماء في نشر الإسلام في السودان ، ص 52 .
- مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ، ص 140.
- المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج 1، ص 313. والبلوي: سيرة أحمد بن طولون ، ص 52
- و. جعفر أحمد صديق: انتشار الإسلام في السودان في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة ، ص 225 ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى 1408هـ.
- ابن الوردي -خريدة العجائب وفريدة الغرائب -28/1- الشاملة موقع الوراق
- يوسف فضل : الهجرات البشرية ، ص 24 وما بعدها
- يوسف فضل : دراسات في تاريخ السودان ، ج 1 ، ص 17

